المثقف بين الشجاعة والجبن

د. عبد الستار قاسم

28/ذو القعدة/1421

يقع المثقفون العرب تحت وطأة انتقاء حاد من قبل الناس العاديين وأنفسهم بأنهم ليسوا أهلاً للمسؤولية الملقاة على عاتقهم وأنهم يقفون على الرصيف غير راغبين بتحدي صاحب السلطة أو السطوة على الرغم مما يمارسه من بطش وعدوان على حقوق الناس المعنوية والمادية. إنهم لا يتحدون بجرأة وشجاعة الاستبداد والقمع والفساد ومختلف السياسات غير السوية التي تمارسها الأنظمة العربية، ويفضلون الصمت والمراقبة من بعيد خوفاً على أبدانهم وأموالهم ومصالحهم. يتحدثون في السر عن الموبقات التي تُمارس ضد الناس وبحق الأمة والشعوب لكنهم ليسوا على استعداد لرفع إصبع في مواجهة الظالم وظلمه، بل أنهم يغرقون ويستغرقون في النفاق عند الاحتكاك بالحاكم أو عندما يواجههم موقف علني. وهم يداهنون بعضهم البعض فيغضون الطرف عما يقترفونه من أعمال نفاقية ودجل لأن الحكمة، حسب تعابيرهم، تقتضي الليونة في وقت الشدة. وسواء كان المثقف متديناً أو غير متدين لا يتلكأ في أن يضفي القدسية على مواقفه مستعيناً بما يرد في الكتب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من رأى منكم منكراً فليغيره بيده وإن لم يستطع فبلسانه وإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان". لكنه لا يأتي على ذكر ما يرد أن الرسول قال: "إن أعظم الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر".

من خلال احتكاكي المستمر بالمثقفين خاصة الأكاديميين منهم يندر أن يظهر من بينهم من يرد التهمة بأن المثقفين إجمالاً جبناء وليسوا أهلاً للدفاع عن الحق في مواجهة الباطل. ولم ألمس من خلال التجربة أن هناك اختلافاً في هذا بين مثقف قومي وآخر شيوعي أو إسلامي أو وطني. ربما يختلف هؤلاء المثقفون في طروحاتهم الفكرية من الناحية النظرية إلا أن الهرب يوحدهم من الناحية العملية. يدافع هذا عن وحدة العرب والتاريخ العربي الفذ المليء بالبطولات، ويدافع ذاك عن وحدة الأمة الإسلامية وعن سيادة شرع الله، ويتحدث ثالث عن الإدارة السليمة للدولة والمساوئ المرعبة التي يسببها الفساد، أما العدد الأكبر الذي يطاول مجموع الجميع فيديرون ظهورهم لأنفسهم وآرائهم ولكل ما أعلنوا أنهم يؤمنون به فتحسبهم هشيماً كأن لم يغنوا بالأمس.

يقول بعض المثقفين أنه ليس مطلوبا من المثقف أن يدافع عن الأمة ضد الحاكم الظالم وأن مهمته تنحصر في قدرته على تحسس هموم الناس ومشاكلهم والتعبير عنها بطريقة لا تودي

به إلى الهلاك المتمثل بالاعتقال والتعذيب والقتل والحرمان من الوظيفة والمحاربة في الأرزاق. المثقف، حسب دفاعهم، ليس قائداً عسكرياً ولا هو مكلف بشن حرب عصابات أو تحشيد الناس ليتدفقوا في الشوارع في محاولة للإطاحة بالظالمين، بل هو صاحب رأي أهلته طاقاته العلمية لقراءة الأوضاع بصورة نقدية وتحليلية وعليه أن يجد وسيلة أو طريقة لإيصال ما يرى إلى الغير دون استعداء أحد بخاصة صاحب القوة. ويضيفون بأن أولئك الذين يطلبون من المثقفين أكثر مما يحتملون ليسوا على استعداد لتحمل مسؤولياتهم في دعم من يقع من المثقفين بين براثن الحكام، وهم سرعان ما يديرون ظهورهم لمن يعجبهم كلامهم ويمتدحون مواقفهم.

ويجادل بعض المثقفين قائلين بأنه من غير المعقول أن يطلب من المثقفين ممارسة أعمال خلاّقة ومبدعة في أجواء تغيب عنها الحرية. المثقف بحاجة إلى الحرية ليكون قدوة في القول والفعل، وصنع أجواء الحرية ليس من مسؤوليته وإنما من مسؤولية الحاكم أو من يملك السلاح ويستطيع أن يواجه قوة المعسكر والمخابرات بقوة السلاح. أي أن هؤلاء يقدرون الحرية ولكنهم يخلون سبيل أنفسهم من أي دور في تحقيقها، وهم ينتظرون من يهديها إليهم.

من الصعب الدخول في هذا المقال في تعريف المثقف لكنه ليس من الصعب ربط المثقف بمعرفة متميزة لها علاقة بخدمة الإنسان وتقدم المجتمع. وبما أن المعرفة المتميزة والتي هي بالضرورة متصاعدة تعتبر أساساً في تطور وتطوير القدرة على ربط الظواهر بعضها ببعض وتحليلها وفهمها ونقدها سلباً وإيجاباً فإنه من المتوقع أن يكون المثقف حسب اختصاصه حساساً للظواهر والتطورات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وغيرها ومتجاوباً مع حاجة المجتمع إلى التعرف عليها ومعرفة مزاياها ومداخلها ومخارجها وإيجابياتها وسلبياتها. بمعنى أن المثقف ليس مجرد صاحب حرفة أو مهنة يستعمل معرفته في تلبية احتياجات خاصة وإنما عبارة عن شخص عام تفرض عليه معرفته تلبية احتياجات عامة. يلبي النجار احتياج شخص يريد أن يؤثث بيتاً، والطبيب يلبي حاجة المريض، لكن المثقف يلبي (نظريا) حاجة كل الناس ضمن مجال اختصاصه. فمثلاً يعبر الشاعر عن هموم الناس بقصيدة، ويوضح الروائي العوائق الاجتماعية من خلال الرواية، أما الاقتصادي (الأكاديمي وليس التاجر) فيبحث عن سبل راحة الناس المادية، وعلى ذلك نقيس بالنسبة للفيلسوف وعالم السياسة وعالم الاجتماع ، الخ.

المعرفة ليست بهدف إلحاق الضرر بالآخرين وإلا وقعنا في المحظور الأخلاقي. يراكم أصحاب المعرفة معارفهم لأن هذا من سنن التقدم وإحراز المزيد من الإتقان. فالطبيب يواكب التطورات الطبية من أجل تحسين أدائه في تيسير شفاء مرضاه وليس بهدف مفاقمة أوضاعهم.

وكذلك بالنسبة للنجار والمهندس والحداد والبناء. وبما أن المثقف عبارة عن شخص عام فإنه يهدف على الأقل من الناحية النظرية إلى نقل مجتمعه أو أمته أو شعبه من حالة إلى حالة أرقى أو أكثر تطوراً في مجال معين أو في مختلف مجالات الحياة. وعلى الرغم من حقه أن يكسب عيشه من خلال أدائه المعرفي إلا أنه ليس من المتوقع أن يقصر نشاطه على ذلك بل أن يوسعه ليقوم بخدمة عامة، أو إن شئت بواجب عام.

المعرفة عبارة عن أمانة تُلزم حاملها بإيصال رسالتها وتطبيقها عملياً على أرض الواقع، وإن لم تكن كذلك فإنها تتحول إلى مجرد رومانسية أو مادة للتأمل الذهني خالية من المضمون الواقعي المفيد. وهي تحمل في داخلها الاندفاع نحو الأرقى وإلا تحولت إلى نمط عددي يثبت عند حد معين مما يجنح بحاملها إلى الجمود والركون في زاوية من التخلف تاركاً الآخرين يتفوقون عليه. إنها نتيجة تصف أولئك الذين يتخلون عن أمانتهم ويعاندون نزعة الصعود أو التطور الإيجابي. إنهم يقررون أن الحياة تستقر عند حد معين، وأن الاطمئنان إلى الثبات يتطلب جهداً أقل بكثير مما تتطلبه شكوك الباحث عن التقدم فيفترشون الماضي للتغني بأمجاده بينما يحمل الآخرون الماضي نحو المستقبل المفعم بالحياة والتغير والجديد والتجديد.

دفع مثقفون وعلماء وأكاديميون أثماناً باهظة عبر التاريخ دفاعاً عن الأمانة التي يحملونها ورغبة منهم في القفز بالإنسانية أو في مجتمعاتهم أو أممهم إلى الأمام. منهم من قُتل أو عذّب أو صلّب لكنهم وضعوا حجر الأساس من أجل الانطلاق، وهؤلاء هم الذين يذكرهم التاريخ وهم الذين يدرس عنهم كل الأكاديميين الكسالى في الوطن العربي. أما أولئك الذين اجتروا معارفهم في مجالس إهدار الوقت والدواوين المغلقة فقد مر التاريخ بدون ذكر لهم. أمم رفعها نفر قليل من المثقفين، وأمم عجز مثقفوها الكثر أن ينفخوا فيها الحياة. تلك أمم قدر بعض أبنائها الأمانة فحملوها مضحين فأطاحوا بالظلام، وهذه أمم تخلى أبناؤها عن أمانتهم فطالت ليالي الحلوك. تلك أمم تصنع التاريخ، وهذه أمم يصنع عليها التاريخ.

مثقفونا في أغلبيتهم الساحقة لا يتخلون عن حملة الأمانة فحسب وإنما يساعد بعضهم الظالم على ظلمه وينافقون ويجبنون أمام المواقف الإنسانية خوفاً أو طمعاً بمال أو منصب أو التزاماً بما يمكن أن يكون قد ورثه تربوياً من أساليب المراءاة والمداهنة. هناك مثقفون مؤرخون يزورون التاريخ ويكتبونه كما يريد الحاكم الاستبدادي الظالم لقاء حفنة من المال أو منصب وضيع يجلب عليهم السخرية والتهكم، وآخرون علماء نفس واجتماع يعملون لصالح أجهزة المخابرات ويعطون الوصفات الملائمة لقمع أكثر كفاءة وفعالية، وأساتذة في علم السياسة

يطوعون أنفسهم لخدمة حكام طغاة لا يعرفون الحقوق ولا يحرمون أي فاحشة. وهناك مثقفون وأكاديميون يمدون أيديهم للصهاينة وأعداء الأمة فيفاوضون ويطبعون العلاقات ويمهدون الطريق لمزيد من إذلال الأمة العربية.

منا الشعراء الذين ينظمون القصائد مادحين من تلطخت أيديهم بدماء الشعب وامتلأت أمعاؤهم من أموال الناس، وكتاب القصص والروايات المتحذلقين الأفاقين الكاذبين الذين يصورون الأوضاع على غير حقيقتها والحكام على غير سجاياهم. وهناك أصحاب الموسيقى والمغنى الذين يبتذلون أنفسهم في مديح الحاكم والثناء عليه والركوع أمام أقدامه وأفراد حاشيته. صنوف كثيرة من المثقفين المتهافتين الذين لا يحترمون ثقافاتهم ولا يرتقون إلى أماناتهم وما يترتب عليها من مسؤوليات وأعباء. هؤلاء جميعاً لا ينافقون ويكذبون فحسب وإنما يبتذلون أنفسهم بالمزيد عندما يهمسون في مجالسهم وأحاديثهم الخاصة حول مساوئ أهل الحكم وأعوانهم وعيونهم من أشخاص وجماعات ومؤسسات. إنهم يعرفون مدى الاستبداد والقمع والظلم والفساد واستغلال الناس واستعبادهم، ويعرفون أنهم مجرد منافقين انتهازيين يبحثون عن موقع أو حفنة من مال أو جاه أو عن شهوة ونزوة مستشرية لكنهم يمعنون في غيهم وسوء صنيعهم. وإذا تمت مواجهتهم من قبل من لا يطمئنون إليهم أو في مواقف علنية عامة فإنهم لا يترددون في التعبير عن ثقتهم بحكام السوء وتقديرهم لهم وحبهم الذي لا حدود له. ربما يهون هؤلاء عن أولئك الذين يطوعون أنفسهم للأجانب فاستلموا الأموال وأقاموا المراكز التي تروج لأفكار الأجانب ومصالحهم. هؤلاء لا يعجبهم حكامنا الطغاة الذين يقودون الأمة نحو الهلاك ويفضلون الاستعمار والسيطرة الأجنبية الفكرية والاجتماعية والاقتصادية.

عدا عن الذين يمتهنون النفاق هناك كثرة تمتهن الجبن. عدد كبير من المثقفين يتخلى عن مسؤوليته بالانزواء والاكتفاء بوظيفة تدر عليه دخلاً يكفيه عوز الحياة. فإذا كان مثقفو السلطان والدول الأجنبية يملكون الجرأة على الحق لصالح الباطل فإن هؤلاء لا يملكون جرأة من أي نوع. منهم من يرغب في الحصول على النعم التي يقدمها أصحاب النفوذ لكنهم لا يملكون جرأة الإقدام، ومنهم من يخاف الله لكنه لا يملك الشجاعة للدفاع عما أمر الله به، وآخرون يملكون ضميراً لا يجرؤون على تطويره إلى مواجهة. هؤلاء لا يتدخلون ولا تهتز أبدانهم ولا يقومون بأي رد فعل، ويشجعون أبناءهم وكل من لهم عندهم تأثير على الانزواء وعدم التدخل وكأن البلاد ليست بلادهم وليس أمامهم إلا القبول بما هو قائم وبأي شخص يحكم.

أما إن كان المثقف من ذلك النفر القليل الذي اختار حمل الأمانة وتسلح بالشجاعة ورغب بالتضحية من أجل قناعاته ومصالح الأمة فإنه سيلاقي الكثير من المعاناة والقليل جداً من الدعم والمساندة. لقد علمتنا التجارب الأخيرة على المستوى العربي أن من يقع، يقع وحده ويدفع الثمن وحده على الرغم من التضامن الفاتر الذي يتلقاه من نقابة أو تجمع معين أو جريدة أو مجلة. يتخلى المثقفون في العادة عن زميلهم الذي لا يسلم بالتأكيد من انتقاداتهم وتقريعهم. وفي هذا تجربتي متعددة وعميقة. لقد أطلقت علي النار بسبب رأيي وتم اعتقالي عدة مرات وخسرت وظيفتي على يد الحكومة الأردنية وإسرائيل والسلطة الفلسطينية، وكنت أجد العديد من زملائي يقولون أنه يستحق ذلك بسبب تدخله في أمور يعرف سلفاً أنه لا يقوى على تغييرها. ولا يتورع عدد منهم عن القول بأنه يفعل ما يفعل بغرض الظهور، ولو أعطوه منصباً لسكت. وإلى غير ذلك من الأقاويل والحكايات التي تعبر عن محاولات الهروب من المسؤولية والتخلي عن الأمانة.

ويجد من يقع في براثن السلاطين أنه لا ينقص مثقفون ناصحون له. يكثر من يتقدم منك من زملائك ومعارفك وأحبابك هامساً: "إنني على ثقة بأن كل ما تقول صحيحا لكن ما شأنك في هذا؟ حط رأسك بين الرؤوس وقل يا قطّاع الرؤوس". يكثر الحكماء والعقلاء والمتروون والهادئون الذين يقدمون النصح والوعظ والإرشاد مجاناً بلا مقابل. ولا فرق فيهم بين مسلم وغير مسلم، بين من يدعي أنه يخاف الله ومن لا يخافه، وبين أشيب أو شاب أو رجل وامرأة. هناك وحدة مثقفين في إسداء نصائح التخاذل والجبن والتنازل عن الحق والأمانة. توحدهم روح الهزيمة وتفرقهم روح المواجهة والدفاع عن الحق.

لكن هذا لا يمنع من وجود مثقفين شجعان أقوياء بالحق وللحق ويدافعون عن مصالح الناس وعن القيم الأخلاقية والدينية والتاريخ وعزة الأمة. لقد وقف مثقفون في مواجهة الباطل والظلم في دول عربية عدة وتعرضوا للتنكيل وصنوف العذاب ومحاولات الإفقار لكنهم صمدوا وما زالوا صامدين. لكن بأس هؤلاء كان من الممكن أن يتعزز (لو) وقف أصحاب المعرفة والعلم إلى جانب أمانتهم وأدوها كما يجب. الخير في الأمة قائم وموجود ولن ينتهي، ومن المحتمل إن لم يكن من المؤكد أن تتزايد أعداد الراغبين في الدفاع عن مستقبل الأمة وأعداد المناصرين للتغيير في مختلف البنى الاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية والثقافية وغيرها. ويبقى من الحيوي أن يعمل الأوفياء مجتمعين حتى لا ينهكهم الاستفراد بهم.